

دور اليهود في العدوان

قاعدة الاسلام

ولنبداً بعرض الملامح الجغرافية - طبيعية وبشرية - لقاعدة الاسلام في المدينة حتى نستطيع أن نتعرف على أسباب الصراع بينها وبين اليهود .

تبعد المدينة عن ساحل البحر الاحمر نحو مائة وستين كيلو مترا ، وعن مكة - في خط مستقيم - نحو ثلاثمائة وخمسين كيلو مترا . وتشغل جزءا منخفضا من سهل مرتفع . ومستواها نحو سبعمائة مترا فوق سطح البحر . وتحيط بها التلال - أو الجبال كما تسميها كتب السيرة - وانحدارها العام من الشرق والجنوب نحو الشمال الغربي .

وترتفع حرة واقم الى شرق المدينة ، وحره الوبرة الى غربها . وتطلق العرب لفظ الحره واللابه على التكوينات البركانية . والى الحرتين - أو اللاتين - يشير الحديث الشريف « اللهم انى حرمت ما بين لا بتيها كما حرم ابراهيم خليلك .. (اى كما حرم مكة) » (١)

والى الجنوب جبل عير والى الشمال جبل أحد ومن ورائه جبل ثور . واليهما يشير الحديث الشريف « المدينة حرام ما بين عير وثور » .

ومن حرة واقم الشرقية ينحدر وادى مذنيب وكانت عليه مساكن يهود بنى النضير ، وادى مهزور وكانت عليه مساكن يهود بنى قريظة .

(١) انظر في احاديث المدينة مادة مدينة يثرب ، في معجم البلدان لياقوت ٥ : ٨٢ - ٨٨ ط . بيروت .

يمتد المجال الجغرافى للصراع الحربى بين اليهود وقاعدة الاسلام فى المدينة نحو ثلاثمائة وخمسين كيلو مترا فيما بين المدينة جنوبا وتيماء شمالا على محور الواحات الذى ينتهى الى أرض الشام . وتتوفر فى هذا المحور موارد من مياه السيول والعيون والآبار يستطيع بها السكان اقامة حياة مستقرة تعتمد على الزراعة والتجارة وبعض الصناعات كالحداذة والصياغة .

أما المجال الجغرافى للتآمر اليهودى فشمل دائرة أوسع تمتد الى مكة جنوبا والى قذب نجد شرقا والى أطراف الشام شمالا والى ساحل البحر الاحمر غربا . أى انها تشمل معظم النصف الشمالى من الجزيرة العربية .

ويسـتغرق المدى الزمنى للصراع ست سنوات من الثانية الى السابعة للهجرة . ويتفاعل فى هذه الفترة - تفاعلا قويا مع الجبهات الداخلية والخارجية التى انتصر عليها الاسلام دفاعا عن قاعدته ووجوده .

وهذه السنوات الست يمكن أن نقسمها الى مرحلتين :

١ - المرحلة الاولى : من السنة الثانية الى الخامسة وفيها دار الصراع فوق أرض المدينة وفى ضواحيها القريبة فى الجنوب الشرقى

٢ - المرحلة الثانية : فى السنة السابعة واستطاع فيها الاسلام أن يقوم بتصفية سريعة وحاسمة لنقط المقاومة فى الجبهة الشمالية : خير - وكانت أعنى هذه النقطة - ومن ورائها سقطت حصون فدك ووادى القرى وتيماء .

على قاعدة الاسلام في المدينة !

دكتور عبدالعزيز كامل

كما أن اليهود لم يكونوا مركزين فيها ، وإنما كانت لهم ثلاثة مواضع رئيسية :

(أ) في قلب المدينة حيث يهود بني قينقاع يمارسون التجارة والصناعة وبخاصة الصياغة .

(ب) في الجنوب الشرقي حيث عاش يهود بني النضير على وادي مذيئيب ، ويهود بني قريظة على وادي مهزور .

(ج) أما الالوس والخزرج فكانوا ينتشرون في عالية المدينة وسافلتها .

وكان سكان الاحياء يحمون أنفسهم ببناء الحصون والدور الحجرية القوية (الآطام) يجمعون فيها المئونة والسلاح ويتحرون - ما استطاعوا - أن يتوفر فيها مورد ماء داخلي يعتمد عليه المحاصرون . فاذا ما أحس القوم خطرا سارعوا من حقولهم وأسواقهم الى الحصون واعتصموا بها ، ودافعوا عن أنفسهم خطر الاغارة الخارجية أو الصراع الداخلي .

وتستطيع المدينة بهذا أن تكون في ساعات العسرة والتماسك الداخلي حصنا كبيرا يدافع عن نفسه خطرا خارجيا . ومن الممكن - في حالات الصراع الداخلي - أن يتفكك الكيان الكبير الى مجموعة من السكيات الصغيرة المتصارعة . من الممكن وفي حالات أخرى - اذا ما تخلى بعض أصحاب الحصون الحاكمة - وبخاصة في العالية - عن ولائهم للمدينة ، ان يصبحوا مصدر خطر كبير يهدد سلامتها ويفتح فيها أخطر الثغرات : وهذا ما حاوله يهود بني قريظة في غزوة الخندق .

ويلتقى الواديان باسم وادي بطحان ، الذي يلتقى بوادي رانواء منحدرًا من جبل غير . وتتجه هذه الاودية نحو الشمال الغربي ويلتقى بها وادي قناة منحدرًا من الشرق ، وتتجمع هذه الاودية في وادي العقيق الذي يخترق حرة الوبرة مقبلا من الجنوب ويتابع جريانه شمالا الى ما وراء المدينة .

واذا كانت مكة قد تمتعت من أقدم العصور بأنها حرم الله وفيها بيته ، فان المدينة لم تنل هذه الحرمة الا بعد مقام الرسوم فيها واتخاذها قاعدة الاسلام . وهي حرمة لم يكن يدين بها وقتئذ الا المسلمون ، في حين كان العرب جميعا يدينون بحرمة مكة . من أجل ذلك كان على المدينة قبل الاسلام وفي مرحلة تأسيس القاعدة الاسلامية ان تحمي نفسها بنفسها ، وانعكس هذا على تخطيطها العام ونظام مبانيها .

والعامل الرئيسي الذي تحكم في توزيع سكان المدينة هو موارد المياه . وترتبط هذه الموارد - أكثر ما ترتبط - بتوزيع الاودية وفي نظامها الشجري الذي يتجمع في وادي العقيق يسكن أهل يثرب ضفاف الاودية وينتشرون حيث يستطيعون جر مياهها . ومن هنا تبدو ميزات عوالى المدينة وأجزائها المرتفعة :

١ - فعندها الفرص الأولى في السقيا .

٢ - وعندها امكانيات أوسع في الزراعة .

٣ - ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد أية غارة . فمواقعهم هي الحاكمة في المدينة .

ولم تكن كل عوالى المدينة خالصة لليهود .

التكوين الاجتماعي

ومع تدهور الحضارات الجنوبية - وان أرجعه بعض المؤرخين الى عوامل مناخية وليس هناك علميا ما يمنع من تأثير هذه العوامل جميعا - حدثت هجرات واسعة من الجنوب الى خارج الجزيرة العربية الى أجزائها الوسطى والشمالية والذي يهمنها منها وفود الأوس والحزرج الى المدينة وسكناهم فيها .

يأتى الأوس والحزرج - من عرب الجنوب - الى يثرب ، فينسى اليهود أن هذه الأرض قد وسعته من قبل عندما فروا من بطش وقع بهم بعد افساد فى الأرض - كما ينص القرآن الكريم - وظنوا أنفسهم أصحاب الأرض ، وحاولوا أن يستبدوا بالأوس والحزرج استبداداً وصل - كما يقولون - الى الأرزاق والأعراض .

وتحدث فى تلك الدورة من دورات الصراع ظاهرة كثيراً ما نلقاها فى تاريخنا العربى الطويل : يتلفت عرب الأوس والحزرج حولهم ، ويجمعون صفوفهم ويستعينون بأخوانهم الغساسنة - على أطراف الشام - وهم مثلهم من عرب الجنوب المهاجرين - وكانت لهم فرص أوسع فى الاستقرار والأزهار الحضارى . ويعينهم الغساسنة بجيش يستطيع أن ينتقم من سوء اليهود ويقضى على زعمائهم وروؤس الشر فيهم . وصار الأوس والحزرج من يومئذ أعز أهل المدينة . واتخذوا القصور والأموال والآطام وقدم الرسول المدينة وهم كذلك (٣) .

فالصراع بين العرب واليهود فى المدينة سابق للإسلام . ولم يكن الإسلام سبباً له . ولم يستطع عرب المدينة وحدهم أن يلقوا هذا الشر ، وكان من العون العربى ما أعانهم على استعادة حق عربى أصيل .

فمشكلة اليهود اذن كانت نابعة منهم ، يحملون بذورها حيث يقيمون : حاربهم عرب المدينة فى جاهليتهم كما حاربوهم بعد اسلامهم وإذا كانت قاعدة الإسلام فى المدينة قد ورثت هذا الصراع ، فقد كان ذلك من أجل استعادة

ويرتبط التكوين الاجتماعى للمدينة بأحداث تتسع دائرتها الى ما وراء الجزيرة العربية نفسها . فمن قديم سكنتها قبائل عربية من العماليق . ثم لما أفسد اليهود فى فلسطين بطش بهم حكاهم وبخاصة من الروم ، فخرج نفر من اليهود لاجئين الى القرى العربية على المحور الممتد من الشام الى اليمن .

وتمر السنون ويستطيعون الاستئثار أو السيطرة على أكثر من واحة : المدينة ، وخيبر وفدك ، ووادي القرى ، وتيماء . وكلها فى النصف الشمالى من المحور، وان وصلت جاليات منهم الى ما وراء ذلك جنوباً .

وإذا كان الحكم الرومانى قد أدى الى هذه الازاحات السكانية نحو الجنوب ، فقد كان له تأثير آخر على الجنوب العربى .

فقد حاول اليونان والرومان السيطرة على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وهى التجارة التى كان يقوم سكان الجنوب العربى بنصيب كبير فيها ، واستطاعوا بها وبالزراعة أن يقيموا حضارات شامخة فى أرضهم . وفى هذا الصراع فقد سكان اليمن والجنوب العربى السيطرة على البحار ، وحرهم اليونان والرومان من مورد كبير كانت له مساهمته الفعالة فى بناءهم الحضارى، وانعكس هذا الضغط الاقتصادى على مشروعاتهم الزراعية الكبرى وبخاصة السدود الكثيرة التى كانوا ينشئونها لحجز المياه . وعندما قلت صيانتها أخذت تتصدع . وأدى هذا بدوره الى قلة الانتاج الزراعى . ومع التدهور البحرى والزراعى أخذت حضارات اليمن تدخل فى ليل حتى جاء فجر الإسلام (٢) .

(٢) تراجع خلاصة هذه الآراء فى البحث الآتى :

— Huzayyin, s., (1956), *Changes of Climate and Human Adjustment in the Sahara - Arabian Belt*, with Special Reference to Africa, pp. 304 - 323. in :

— *Man's Role in Changing the Face of the Earth*, edited by W.L.Thomas Tr, Univ. of Chicago Press.

— Hourani, G.F., (1951), *Arab Seafaring in the Indian Ocean in the Early and Medieval Times*, pp. 17 - 36 Princeton univ. Press.

حق ، والقضاء على أوكار الفتنة فى الجزيرة العربية . أما الدين من حيث هو دين ، فالذى يحكم المسلمين فيه قول الله تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ومع تعرض الأوس والحزرج لخطر اليهود المشترك ، فقد كانت بينهم حروب وثارات فى الجاهلية ، واتخذ كل منهم لنفسه حلفاء من اليهود . واستطاع اليهود بذلك أن يحفظوا جانباً من قوتهم فى المدينة ، واطمأن كل فريق منهم الى محالفته حياً من عرب المدينة : الحزرج يحالفون بنى قينقاع وبنى النضير والأوس يحالفون بنى قريظة . وأصبح كل فريق من الأوس والحزرج - قبل الاسلام - حريصاً على حلفائه من اليهود . واليهود - من ناحيتهم - يحرصون على ألا يجتمع الأوس والحزرج عليهم ، وكان لهم جهدهم قبل الاسلام وبعده فى تفكيك وحدتهم .

هذه هى الملامح الرئيسية للمدينة - طبيعية وبشرية - عندما اتخذها الرسول قاعدة للاسلام . وهنا - فى المدينة - كان المجال الأول للصراع .

المرحلة الأولى

بنو قينقاع :

كانت هناك مشكلات تتعلق بالصف الاسلامى لا بد من حلها ، أو السير الى ذلك حتى يستطيع هذا الصف مقابلة أعدائه . لا بد أولاً من توثيق الصلة بين الأوس والحزرج ليكونوا جميعاً « أنصار الله » . ولا بد من توثيق الصلة بين الانصار وبين المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم مهاجرين الى الله ورسوله .

ولا بد مع التوحيد الفكرى للمسلمين - من توحيد حركى تستطيع به قاعدة الاسلام أن تدافع عن نفسها . (شكل ١) .

ولكن ضد من فى هذه المرحلة ؟

الخطر القرشى خطر محقق ، والخطر اليهودى لا يزال محتملاً ، لأنهم لم يبدؤوا عدواناً ظاهراً أول الأمر . وهى فى نفس الوقت حلف للأوس أو الحزرج . فليعقد الرسول مع

اليهود حلفاً جديداً - هو متابعة جزئية لوضع قائم - ولكن باسم الاسلام . وفى هذا كسب جديد ، فان الحلف الجديد سيجب الاحلاف الجاهلية ويجعل التعامل مباشراً مع الرسول كقائد للمسلمين بيده السلطة العليا فى المدينة « وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فان مرده الى الله ورسوله . » وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وبالمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، الا من ظلم أو أثم ، فانه لا يوتغ (أى يهلك) الا نفسه وأهل بيته . وأن بطانة المؤمنين كأنفسهم . وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد . وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم » (٤)

وبهذا أعطى الحلف الفرصة لليهود لتعايش وتعاون مع المسلمين على أساس من السماحة الدينية لكل أهل المدينة على اختلاف أديانهم ، مع مشاركة فى دفع أى أذى عن المدينة ، وتحديد واضح لعداوة قريش ومن نصرها .

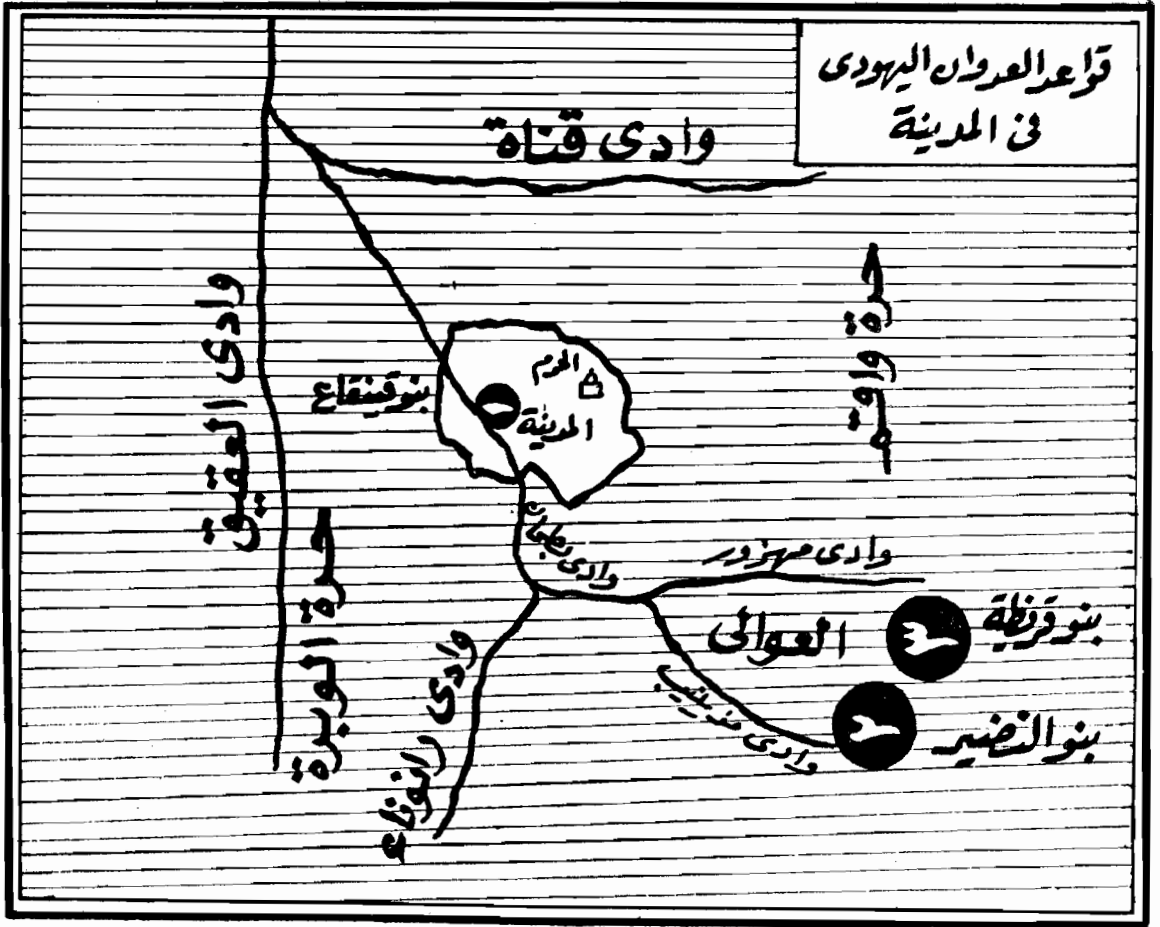
وتبدأ الحركات العسكرية فى المدينة منذ العام الأول للهجرة : ثمان سرايا وغزوات فى مجال جغرافى يمتد من شمال غرب المدينة على ساحل البحر الأحمر حتى الجنوب وراء مكة على طريق الطائف . وتهديد لتجارة قريش الشمالية والجنوبية . وتحدث غزوة بدر فى رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وينتصر فيها المسلمون على قلة عددهم وعدتهم ، على ثلاثة أضعاف قوتهم (المادية) . ويعود الرسول الى المدينة بعد النصر المبين .

هل يفرح اليهود بالانتصار . وبالدفء عن المدينة وبارتفاع شأنها ؟ ! هذا كعب بن الأشرف اليهودى ، وقد علم بمقتل سادات قريش فى بدر ، يقول :

« والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الارض خير من ظهرها » .

ويقصد مكة بعد أن يتيقن من الخبر يعرض على رسول الله وينشد الاشعار ويبكى قتلى

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ - ١٥٠ ط ١ الحلبى ١٩٣٦ - القاهرة .



ويتابع اليهود حملتهم مستهزئين بالاسلام والمسلمين . ويصل الامر الى تعرض للمسلمات وتناول يثور له مسلم في سوق بني قينقاع فيقتل اليهودي الآثم في سوقه ووسط قومه، فيعدو عليه اليهود قتلا، وينسحبون الى دورهم معتمدين على سلاحهم وحلفهم الجاهلي .

ويأتي الرسول اليهم يدعوهم الى كف الأذى واحترام الحلف فيستخفون به :

« لايفرنك يامحمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصببت منهم فرصة . انا والله لئن حاربنا لتعلمن أنا نحن الناس! »

وماذا يستطيع الرسول في هذا الموقف الا أن يقبل التحدي ، وأن يحاصر قوما استعدادا لهذا الموقف ، ويساكنونه قلب المدينة ؟

قريش .. ثم يعود الباكي الحزين الى المدينة ليتغزل في نساء المسلمين !! (٥)

ولا يستطيع اليهود اخفاء غيظهم من نصر رسول الله ، فيجاهرون بالعداء ، ويشمكون المسلمين في دينهم ، وينقلون أخبار المسلمين الى المشركين ، ويفتحون بيوتهم لايواء أعداء الاسلام ويبينون لهم عورات المدينة . كل هذا بعد العهد الذي قطعه على أنفسهم مع المسلمين بأن بينهم النصر على من دهم يشرب !!

وكان من أخطر الجيوب جيب بني قينقاع، فهم في قلب المدينة يخالطون المسلمين ، ويعرفون الكثير من أمرهم وأسرارهم وينقلونها الى قريش .

وتتجمع هذه الاخبار كلها عند الرسول

الى مكة ملقين وراءهم ما معهم من أرزاق
كثرها من السويق (٧) .

ويبذل الرسول أكثر جهده في هذه المرحلة
في تهديد طرق تجارة قريش الى الشام .
ويؤثر هذا تأثيرا سيئا على اقتصاديات مكة .
ويحاول القرشيون التحول الى طريق العراق ،
ويصيبهم المسلمون في هذا الطرق أيضا .
وبهذا أقفلوا عليهم طريقي الشام والعراق .
ومن هذه الطرق كانت قريش تستمد أكبر
طاقاتها الاقتصادية . والحربية .

وتضع قريش قوتها في غزوة أحد . ويقف
اليهود موقف التربص . وتنتهي المعركة
بسبعين شهيدا من المسلمين ونصر أولى لقريش
تترك بعده الميدان فيتبعها الرسول رغم ما
أصاب المسلمين ، فتتكص قريش عن لقاء
الرسول في حمراء الأسد حيث بقي ثلاث ليال
واسترد المسلمون كثيرا من مكانتهم التي
اهتزت في غزوة أحد

لم تستطع قريش أن تثبت أمام المسلمين
في حرب سافرة ولا أن تلقى الرسول وصحبه
في حمراء الأسد بعد أحد ، فهل يحاول هذا
بنو النضير ؟

هنا يلجأ بنو النضير الى الحيلة والغدر ،
وانتظار فرصة «واتية يقضون فيها على
الرسول نفسه .

ويذهب اليهم الرسول بعد حين ليستعين
بهم في دية قتيلين معاهدين قتلها المسلمون
خطأ . ويجلس مع نفر من أصحابه الى جدار
بيت . ويرى الرسول ببصيرته النافذة
كيف يقوم بعض القوم الى البعض يسرون
القول ثم يلحق أحدهم يتسلل الى البيت الذي
يجلس الرسول الى جداره ، فيستأذن
أصحابه في هدوء ، ويقوم وحده عائدا الى
المدينة . وسرعان ما تتضح خيوط المؤامرة :
حجر رحي كان القوم يدبرون اللقاء على
الرسول وهو جالس الى الجدار . ويرسل
اليهم الرسول من يقول لهم :

(٧) ابن هشام ٣ : ٤٧ - ٤٩ .

ويحاصر الرسول دور بني قينقاع خمسة
عشر يوما حتى يضطر اليهود الى التسليم
والرضى بما يصنعه بهم رسول الله .

ويتدخل رأس المنافقين - عبد الله بن أبي
ابن سلول الحزرجي - طالبا من الرسول أن
يحسن الى مواليه من يهود بني قينقاع :
أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع .

فيأمر الرسول باخراجهم من المدينة
على أن يتركوا وراءهم السلاح وأدوات
الذهب (٦) حتى بلغوا وادي القرى . وبقوا
هناك زمنا ، ثم ساروا الى أذرعات على حدود
الشام . ولم يبقوا فيها طويلا حتى هلك
أكثرهم .

وهكذا تخلص الرسول من القوة المعادية
التي كانت تسكن قلب المدينة .

هناك ارتباط واضح بين نصر المسلمين
ببدر وردود الفعل التي حدثت من اليهود في
المدينة - وبخاصة ضد يهود بني قينقاع على
غير ما يقضى به العهد بينهم .

بنو النضير :

وبعد تطهير قلب المدينة بقيت قونان : بنو
النضير على وادي مذيئيب ، وبنو قريظة على
وادي مهزور في ضواحي المدينة الجنوبية
الشرقية .

ويفرغ الرسول مرة أخرى الى حرب
قريش . وتنتهز قريش غرة فترسل قوة
بقيادة أبي سفيان من مائتي فارس ، وينزل
أبو سفيان على بني النضير ، ويعرف من
سلام بن مشكم - من ساداتهم - أخبار المسلمين
ويتدارس معه أجدى الطرق للايقاع بهم ،
ويوضح له سلام أفضل الثغرات ، فيهجم
برجاله على وادي العريض ، ويحرقون
ويقتلون في عجلة ويفرون هاربين . ويجده
المسلمون في طلبهم ، ويسرع كفار قريش

(٦) يقول عنهم القرظي في « امتاع الاسماع » - تحقيق
محمود شاكر - ١ : ١٠٥ وكانوا أشجع يهود واول
من غدر من اليهود . . . وجهدوا في منالهم سلاحا
كثيرا .

ثقة فيما عندهم من عتاد ، وما يستطيع حلفاؤهم من المنافقين أن يلقوه في المعركة اذا مال ميزانها ضد مصلحتهم .

ويأمر الرسول باحراق نخيل اليهود . .
ما داموا قد أدخلوا الأرض الزراعية في القتال . . وينتظر اليهود النصر من المنافقين فلا يجدون الا رجع الصدى . فيسألون الرسول تأمين أموالهم ودمائهم وذرائعهم .

ويوافق الرسول على خروجهم ، ولكل ثلاثة منهم يعير عليه ما شاءوا .

ولا يستطيع حلفاؤهم من المنافقين أن يحركوا ساكنا .

وترك بنو النضير وراءهم سلاحا وغللا وأرضا عادت الى المسلمين .

بنو قريظة

وكانت هذه هي القوة الباقية الوحيدة من قوى اليهود في ضواحي المدينة بعد اجلاء بنى النضير .

وشهد هؤلاء سرعة تحرك الرسول للقضاء على تجمعات أعدت لغزو المدينة على مدى يمتد من دومة الجندل - على الحدود بين الحجاز والشام - الى الميسيع جنوبا قرب مكة ، فوجدوا أنهم وحدهم أضعف من أن يواجهوا المسلمين فانتظروا فرصة : حليفا قويا يتعاونون معه اذا تأكدوا من النصر . وقام يهود بنى النضير بجهد كبير في تجميع وتأليف قريش والقبائل العربية في نجد لغزو شامل للمدينة .

وتأتى غزوة الخندق في العام الخامس للهجرة . قوات المسلمين فيها ثلاثة آلاف معتصمة بالمدينة وراء خندق حفرت في الجزء المنخفض الشمالى ، بينما العوالى حيث المزارع الكثيفة والحصون وديار بنى قريظة متروكة لقوات حراسة خفيفة متحركة (٩) وقوات

(٩) انظر في تحقيق مكان الخندق :

محمود شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢١٧ دار القلم - القاهرة ١٩٦٤ .

ان رسول الله أرسلنى اليكم أن أخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ما هممتم من الغدر بى . لقد أجلتكم عشرا . فمن رثى بعد ذلك ضربت عنقه (٨) .

ولنذكر ما كان - من قبل - من ايوائهم أبى سفيان في غزوة السويق التى أغار فيها على المدينة غدرا على أساس من معلومات قدمها بنو النضير .

وكان بنو النضير حلفاء الخزرج . ويرسل اليهم عبد الله بن أبى سلول : « اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه » .

فكان حلف الجاهلية عاد فرفع رأسه . ويراه بنو النضير فرصة : ماذا لو انتصروا هم ومنافقو المدينة وعادت اليهم أوضاعهم كما كانت في الجاهلية ؟

ويستقر رأيهم على القتال ويطبقون المتاريس فى الطرقات ويحتمون بالحصون ويكدسون أرزاقا تكفيهم سنة كاملة من الحصار . والماء متيسر فى آبار الحصون .

هى حرب مدنه لا حرب حصون . غير فيها بنو النضير الاسلوب الذى اتبعه يهود بنى تينقاع ، سواء فى محاولة القضاء على الرسول بالتآمر أو الاستيثار من « التحالف » بينهم وبين المنافقين ، ثم اللجوء الى اعداد أنفسهم لحرب طويلة فيها عدد من خطوط الدفاع المتوالية آخرها الحصون . واكتسبوا بهذا عمقا فى الدفاع فلا تكون الحصون هى التى تتلقى الصدمة الاولى والاخيرة كما حدث مع بنى قينقاع . وفى ذلك كله استفادوا من طبيعة الارض والتركيب الاجتماعى للسكان قبل الاسلام .

وتدور الحرب بين المسلمين وبين بنى النضير : دارا بعد دار ، وشارعا بعد شارع . واليهود يهدمون ما يضطرون الى اخلائه « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » . عشرين ليلة من الصراع . وفى اليهود

(٨) ابن هشام : ٣ : ١٩٩ - ٢١٣ وامتناع الاسماع

١ : ١٧٨ - ١٧٩ .

المشركين عشرة آلاف من قريش وبنى سليم
وأسد وفزارة أشجع وغطفان - هذا غير قوة
يهود بنى قريظة التي ستبرز في مرحلة متأخرة
من الحصار .

ومع اشتداد الحصار ومحاولات الحندق يبدو
خطر بنى قريظة :

١ - محاولة تسلل في أثناء الحصار -
والمسلمون يواجهون العدو من الشمال -
يستهدف بها اليهود جمع معلومات عن قلب
المدينة حيث الدور وبها النساء والصبيان .
وتحس صفيّة بنت عبد المطلب عمّة الرسول
بذلك - فلا تضيع وقتاً في طلب نجدة وانما
تباغت الجاسوس اليهودي فتصرعه فلا يعود
الى قومه . فيظنون قلب المدينة في حراسة
قوية .

٢ - تحالف بين قريش وبنى قريظة على أن
يفتح لهم بنى قريظة ثغرة في الجبهة الجنوبية
حيث حصونهم ، فيتدفقون منها الى المدينة ،
فيفاجأ المسلمون يعدوهم من فوقهم ومن أسفل
منهم . ولا يفسد هذا التحالف الا نعيم
ابن مسعود الغطفاني ، وقد أسلم وجاء
الرسول وأعلمه بالأمر ، فأمره الرسول أن
يكتّم أمره ، وأن يبذل جهده في تخذيل القوم،
فينصح اليهود بأن يطلبوا من قريش رهائن
قبل الالتحام المشترك ضد المسلمين ، ويفصح
قريشاً بأن اليهود سيطلبون منهم رهائن
يقدمونها الى محمد ليعفو عنهم ، ويكتّم كل من
الطرفين مصدر معلوماته بتوجيه من نعيم ،
فلما التقيا ظهر الشك ولم يتفقا . وآثرت
قريش بعد الحصار المضني في برد الشتاء وقلة
المثونة وثورة الشك في النفوس أن تضسحب
من الموقع ، وثار ريار الشتاء العنيفة
تطفئ نيران المعسكر وتقلع خيامه . ومع
رياح الشتاء ورياح الشك يأتي صباح ينظر
فيه المسلمون الى معسكر عدوهم فيجدونه
خاليا (١٠) .

(١٠) تفاصيل المؤامرة ودور نعيم بن مسعود الغطفاني
مذكورة في كتب التفسير والسيرة : انظر ابن هشام
٢ : ٢٤١ - ٢٤١ .

ولا يطوى الرسول أعلام المعركة وانما يوجه
أصحابه - رغم ما عانوه من جهد - الى
الاسراع الى حصار حصون بنى قريظة في الجنوب
الشرقي في نفس اليوم . وكان الاسراع
ضرورة حربية ليضع المسلمون أيديهم على آبار
خارج الحصون يستقون منها ، ولو تأخروا
لاستطاع اليهود تدميرها وحرمان المسلمين
من مورد مائي في أرض المعركة .

ويعتصم بنو قريظة - في حصونهم خمساً
وعشرين ليلة بعد أن فشلوا في أن يهزموا
المسلمين بدماء العرب !! . ولم يلجأوا الى
أسلوب بنى النضير في حرب الطرقات والدور
والتاريس . . وانما غلبهم الذعر : لا يقبلون
سلاماً ولا يخرجون لقتال ، فلم يعد أمامهم
سوى المصير المحتوم - مصير الخائن في
الحرب .

ويعرضون الجلاء واللاحق باخوانهم الذين
سبقوهم الى الشمال ، فيأبى الرسول الا
التسليم دون قيد ولا شرط .

وعادوا يطلبون التحكيم على أن يتولاه سعد
بن معاذ زعيم الأوس حليفهم قبل الاسلام ،
وظنوا أمرهم ينتهي كأمير بنى النضير
وبنى قينقاع . ويرضى الرسول . وبعد أن
بأخذ سعد على الطرفين العهد والميثاق أنه
يقبلوا حكمه ، يحكم - وهم الذين اختاروه -
بقتل المقاتلة وأسر الباقين .

وماذا كانت بنو قريظة ستفعل اذا انتصرت
غير ذلك ؟

لقد ظنوا سعد بن معاذ كعبد الله بن أبي
بن سلول رأس المنافقين ، ولكنه كان رجلاً
طهر الله نفسه من أمر الجاهلية . اذا فهم
سعد الكأس التي كانت تنتظره وقومه
واخوانه في العقيدة لو انتصرت الأحزاب
واليهود على قاعدة الاسلام في المدينة . وسجل
الله هذا في كتابه :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب
(وهم بنو قريظة) من صياصيمهم (حصونهم)
وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقنا تقتلون
وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم

وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا » .

ويوزع الرسول أرض بني قريظة على المسلمين ٠٠ وتعود أرض المدينة ومياهاها إلى أبناء المجتمع الجديد من مهاجرين وأنصار . تظلم العقيدة والحب والايثار .

كان حصاد هذه الرحلة الاولى تطهير قاعدة الاسلام في المدينة من الخطر اليهودي الذي كان مسيطرا على جزء من منطقة القلب يخالط المسلمين ويعلم أخبارهم وينقلها إلى أعدائهم ، ويدلهم على عوراتها ، كما كان يسيطر على نقط حاكمية في الجنوب الشرقي لها ركانتها القوية من الأرض الحصبة وموارد المياه معتمدا على حصون قوية وسلاح ٠٠

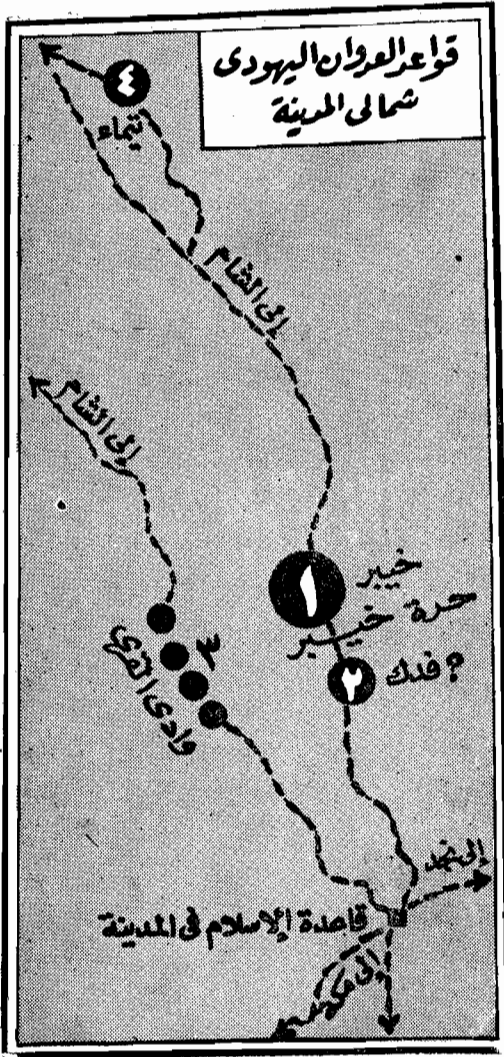
وقد وضح من العرض كيف أن اليهود في المدينة كانوا كل مرة بادئين بالعدوان ، ناكثين بالعهد ، متآمرين مع العدو ، يدفعونه ويتقدمون إلى المعركة متى ظنوا النصر أو وجدوا الفرصة وأن المارك الثالث الكبرى معهم كانت مرتبطة زمنيا وموضوعيا بمعارك ثلاث كبرى مع قريش : بنو فينقاع بعد « بدر » ، وبنو النضير بعد « أحد » بفارق زمني ، وبنو قريظة - مع « الأحزاب » وبعدها ، وإن التصادم بدأ أولا في قلب المدينة ثم انتقل إلى أطرافها ٠٠

الرحلة الثانية

هؤلاء الذين خرجوا من يهود المدينة ٠٠ أين تجمعوا ؟

كانت رحلتهم شمالا . عاشى بعضهم في « خيبر » ، ووادي القرى ، وفدك ، وتيماء ، بينما تابع البعض الآخر رحلته شمالا إلى أطراف الشام ٠ (شكل ٢)

وكانت تجربة غزوة الأحزاب أو الخندق غنيمة عميقة . ومع أنها نجحت نجاحا كاملا إلا أنها خدعت أبغاد المارك المقبلة : هناك جبهة جنوبية مركزها مكة حيث قريش ، وجبهة شمالية مركزها خيبر حيث تجمعات اليهود



عند هؤلاء جميعا كان غزوة الأحزاب جولة وراءها جولات . وتبدأ الجبهة الشمالية في الحركة :

- محاولات لتعاون جديد مع غطفان واغرائها بعدوان جديد على المدينة .

- محاولات غدر بوفد أرسله الرسول إلى خيبر .

وكان من المنتظر إذا ما نجحت محاولات اليهود في تجميع قبائل « نجد » أن تلقى قريش بقوتها في مغامرة جديدة . فلا بد من الفصل بين الجبهتين . ولكن كيف ؟

يخرج الرسول في العام السادس لزيارة المسجد الحرام في قوة يراها العرب . ويدعو

وبقى اليهود وحدهم ٠٠ لا قريش ولا قبائل « نجد » ، ويطلع صباح على خيبر لتجد جيوش المسلمين أمام الحصون .

ولم يكن الاستيلاء على حصون خيبر بالامر اليسير (١١) ٠٠ فهي تقع في منطقة صخرية وترتبتها بركانية خصبة غنية بالنخيل والحبوب الغذائية وكانت أقوى النقاط اليهودية الشمالية وأهلها أعرف اليهود بشئون الحرب ، وعندهم آلات تخريب ودفاع عن الحصون وتتألف دفاعاتها من ثلاث مجموعات من الحصون :

١ - منطقة النظطة : في وادي السرير ، وفيها حصون النظطة ، وناعم ، والصعب بن معاذ ، الزبير .

٢ - منطقة الشق : وهي على جبل شمران المشرف كذلك على وادي السرير وفيها قلعة أبي وكانت مشيدة على قمة الجبل .

٣ - منطقة الكتيبة : وفيها حصن الوطيح والسلام ، وهما أقوى حصون خيبر ، وحصن القموص .

وجمع اليهود الابناء والاموال في حصني الوطيح والسلام ، والذخائر في حصن ناعم . والقوات المحاربة في حصن النظطة .

ويدور القتال في العراء ، ثم يتراجع اليهود الى الحصون . تركيز على حصن ناعم أمنع الحصون مع مشاغله للحصون الاخرى . ويسقط حصن ناعم ومن بعده حصن القموص بعد قتال شديد . ويتحولون الى حصن الصعب

(١١) في وصف حصون خيبر وملامح المنطقة الطبيعية انظر :

(أ) محمود الدرة : تاريخ العرب العسكري ص ١٦٢ - ١٦٣ ٠٥ دار الكاتب العربي بيروت ١٩٦٤ .

(ب) عبد الله فليبي : ارض الانبياء ص ٣٥ - ١٤٣ ترجمة عبد الله الديراوي ط . الاهلية بيروت . وفي هذه الصفحات يقدم المؤلف وصفا معاصرا لتلك المواطن من خيبر الى تيماء ويشير الى ما استطاع الوصول اليه من الآثار القديمة فيها ويعتبر بحثه هذا متابعة لبحث روائي عن المنطقة .

العرب جميعا الى هذه الزيارة تعظيما لبيت الله لا قتالا عنده . وماذا تستطيع قريش أن تفعل : أتصدده عن زيارة المسجد الحرام أم تقاتله في الشهر الحرام ؟

ووجدت قريش نفسها في مأزق ٠٠ ولن نقف طويلا عند صلح الحديبية الذي عقد بين الرسول وقريش ٠٠ فالذي يعيننا من شروطه في موضوعنا أنه كان هدنة بين قريش والرسول مدتها عشر سنوات يدخل فيها في عهد محمد من أحب وفي عهد قريش من أحب . وان يرد الرسول الى قريش من يأتي اليه مسلما بدون اذن وليه ، ومن جاء قريشا من أصحاب محمد لم يردوه اليه .

في المعاهدة اعتراف بالمسلمين طرف مساو لقريش . وفتح المجال أمام محالفات مع القبائل ولقد كتم الرسول حتى عن أقرب المقربين اليه أهدافه البعيدة من الصلح ، ولكن سرعان ما ظهرت نتائجها .

قدرة ممتازة على ضبط النفس ظهرت من الصحابة حين قبلوا العودة من عامهم هذا دون دخول المسجد الحرام على أن يعودوا اليه في عام قابل .

ولتوجه قريش الآن أنظارها الى تجارتها وتحاول إعادة بناء نفسها اقتصاديا ٠٠ فاذا ما قويت استطاعت أن تفعل ما تشاء ٠٠ وتأيتها المشكلات من حيث لا تحتسب ٠٠ الذين خرجوا الى الرسول بدون اذن أوليائهم أعادهم الرسول على أساس من نصوص المعاهدة ، ولكن هؤلاء لم يقبلوا العودة الى قومهم ٠٠ الرسول لا يقبلهم في مجتمعه ٠٠ فاذا بهم يتغلبون على حراسهم في طريق العودة من المدينة الى مكة ويكونون قوات ضاربة خفيفة ٠٠ قوات فدائية تعمل لحسابها وتحصل على رزقها بسلاحها ، وماذا تستطيع أن تفعل غير أن تقطع على قريش طرق تجارتها . وتضيق قريش بشروط ظنتها تصرا وتناشد الرسول الرحم أن يسقط هذا الشرط من المعاهدة .

ويقف يهود الجبهة الشمالية وحدهم . ويباغت الرسول حلفاءهم في نجد ، فاذا بهم ينطوون على أنفسهم مدافعين عن ديارهم ٠٠



مشعل الحرية لن يسقط من

يدنا أبدا .

للفنان جمال كامل

الشر ، وينشئ الاستعمار فوق أرض فلسطين دولة مؤامرات تمزق الوطن العربي الى قطاعين آسيوى وافريقى ، ويتخذها رأس جسر لعدوانه . ونحن نمر الآن بتجربتها تأمرا واستعداء وعدوانا ، وثغرة خطيرة تنفذ منها قوات الاستعمار الجديد : أمريكية وبريطانية ، الى أرضنا . وليس هناك من سبيل أمامنا الا العمل . . والعمل الدائب حتى تظهر أرضنا العربية بعودتها الى أبنائها كما استقرت قاعدة الاسلام فى المدينة بالقضاء على الشر الدخيل .

وصفوة القول أن العرب والمسلمين لم يكونوا على طول تاريخهم - عادين ، وانما كانوا - كما رأينا من هذه الدراسة - يبدعون دائما بالخير ويتحرون السلام ، فلا يلقون من أعدائهم الا التآمر والخيانة ، فلم يعد أمامهم الا أن يدفعوا عن أنفسهم شرا وأن يستعيدوا حقا .

بن معاذ : حيث المثونة ، ثم حصن الزبير بعد أول سلالهم . معرقة مصدر مائة ويقطعون عنه الماء . وتتساقط لحظون . وأخيرا سقطت لحظا إلى الاله عبيح والدليل فيبقى الى اليهود فتلسيم . ريفيهم الى الرصاص على الارض وس وعليهم على كل ولهم نصف ناللة .

ويسرق ، الخبر بسقوط حصون خيبر ، فتقبل « فدك » نفس الشروط ، ومن ورائها حصون وادى القرى وتيماء . .

واستطاع خالد بن الوليد بهذا ، القضاء على اليهود عسكريا . من الجزيرة العربية بعد معارك خيبر الفاصلة . .

ومع أن الله لم يزل منحهم فرصة الحياة فى الواحات السهلة كيه الا أن المؤامرات استمرت بعد رقه ، ولم يجتلي في العادل عمر بن الخطاب الا ايمانهم اجلا . من الجزيرة العربية الى أطراف الشام . .

ونراكن هل تمت القصة ؟ . .

نماذج . . . لقطات ، تجدد بصورة أو بأخرى . . . وتبقى الحاكمة الصهيونية الحديثة ههنا

(١٢) فى سقط . . الجبهة الشمالية انظر : ابن هشام ٣ :

٣٤٢ ٣٧٤ ١ .

والغرائط نعتمد على تحقیقات : محمود شیت

خطاب (حاشية ٩)